

الفكر النبوي محمدية
ابن طرفة سكر
في كتابه من يقظان

الفكر النبوي عند
ابن طفيل
في كتابه حيت بن يقظان

دراسة وتحليل
الدكتور عبد الأمير ز. شميس الدين

الشركة العالمية للكتاب شامل
مكتبة المدرسة - دار الكتاب للعالمية



الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل.

طباعة - نشر - توزيع

مكتبة المدرسة

دار الكتاب العربي

الدار الافتتاحية العربية

الادارة المساندة

العشاق - نقابة الادباء اللبنانية
مكاتب ٢٤٩٠٥٥ - ٢٤٩٣٧٠ - صوب ٣٧٦
مكاتب LE ٢٢٨١٥ - بيروت - لبنان
بشورت - لبنان

المسودات

مكاتب ٢٥١٤٢٢



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

القسم التربوي

الشركة العالمية للكتاب

د. عبد الأمير شمس الدين

رؤساء دولة في فلسفة التربية
أستاذ في الجامعة اللبنانية

عبد الحميد فايد

أستاذ التربية وأصول التدريس
في جامعة بيروت العربية

تقديم

ما أشبه الفكر العربي الاسلامي ببستان يجوي كل لون وكل صنف، هياه الاسلام بتعاليمه ليتقبل كل ما قد يصدر عن الفكر البشري، (العقل)، فيتمثله ويضفي عليه بعض ما عنده من معطيات ومكونات، يقدمه إلى البشرية من جديد بمنطلقات وأغراض جديدة، تناسب الاسلام وتعاليمه (الوحي).

ونحن الآن أمام إحدى نباتات ذلك البستان المعطاء. تناوله الباحثون والدارسون كغيره من رواد الفكر العربي الاسلامي من جانب واحد متى أرادوا انصافه وتقييمه...!

وإذا سلمنا أن الثقافة أو الحضارة هي محصلة بشرية، وهي دليل على الانسجام والنظام الكونيين، يصاحبه بالضرورة انسجام ونظام فكريين، ومتى وقع الانفصام بين ما هو بالفكر (النظر) وبين ما هو في الواقع (العيان) دليل على الخلل وعدم الانسجام.

والفكر الاسلامي كفكر له ميزاته وخصائصه، وبما لا شك فيه أنه كان منسجماً ومتوافقاً متكاملًا وشاملاً مما أرغم الباحثين مسلمين وغير مسلمين، عرب وغير عرب، على الاعتراف بإسهاماته، إن لم نقل بقيادة الفكر البشري حقبة طويلة من الزمن، طالما بقي محتفظاً بذلك الانسجام والانتظام وبتلك الشمولية والتكاملية.

والترية كما هي الأداة المحققة لغايات الإنسان، هي أيضاً القناة الموصلة ما بين الفكر والواقع من أجل تحقيق النظام والانسجام. كما أنها الأداة الوحيدة القادرة

على الربط ما بين العقل (الرأي) والواقع (العيان)، ما بين العلة والغاية، ما بين السبب والنتيجة، ولعلها هي تكون الحلقة المفقودة كلما افتقرت البشرية إلى ذلك الانسجام والتوافق. فتشير الأصابع إلى التربية، وتبدأ الاهتمامات تنصب عليها وهي المهمة دوماً.

وليس من المعقول أن يكون الفكر الاسلامي قد افتقر إليها في تلك الحقبة التي أسهم فيها وقاد، والتربية هي أدواته وقناته، والانسان هو موضوعه وغرضه. والتربية وحدها القادرة على الانتقال بالانسان مما هو كان إلى ما يجب أن يكون.

وما هو ابن طفيل الفيلسوف، في قصته حي بن يقظان في محاولته التوفيقية ما بين العقل والوحي، يعثر على الحلقة المفقودة في ربط العلة بالغاية والسبب بالنتيجة، فينشئ ويربي تلميذه «حي» وفق نموذج لإنسان كان قد وضعه في فكره، ووجد في التربية أداة قادرة على تحقيق الإنسان الذي يريد، فكان الإنسان عنده هو الموضوع والغرض والغاية. و«حي» ابن طفيل «كإميل» روسو، و«أمير» مكيافللي، وكما كانت التربية بمثابة النور الذي يقودنا إلى مكونات فكر الفيلسوف، هي أيضاً النور الذي سيقودنا إلى فكر ابن طفيل الفيلسوف المسلم.

ع. ز. شمس الدين.

الكتاب الأول

التحليل
مذهب ابن طفيل التربوي

القسم الأول

المحتويات: القسم الأول

الفصل الأول:

ابن طفيل: السيرة والتكوين الفكري

الفصل الثاني:

ابن طفيل: العالم والمؤلف والفيلسوف.

الفصل الثالث:

ابن طفيل: سريبي حي بن يقظان.

الفصل الأول

سيرة ابن طفيل وتكوينه الفكري

كم هي ضحلة المصادر التي تحدثنا عن ابن طفيل، طفولة وتعلماً ونشأة، فنجدها تضع القليل من جوانب حياة هذا الفيلسوف في دائرة النور، وتطمس الظلمة الجوانب الأخرى.

هذا بالنسبة للمصادر القديمة^(١)، أما المصادر الحديثة عن حياة ابن طفيل فتكاد تقتصر على ما رده القدامى يضاف إليها دراسة ليون جوتيه^(٢) L'leon Gautier الحديثة التي تشكل أوفر معين حديث لدارسي هذا الفيلسوف.

ماذا قَدّم الباحثون عن ابن طفيل؟

وُلد أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي، في وادي «أش» «gudix» حالياً لا تبعد أكثر من ٥٥ كلم عن قرطبة، في عام لم يجده المؤرخون بدقة، فذكروه ما بين ٤٩٥ و٥٠٥ هجرية. في أسرة لم يذكر المؤرخون عنها شيئاً، ينتمي إلى قبيلة قيس من أصل عربي من غير اليمن.

أما عن نشأته ودراسته لم تتعد الاستنتاجات، فهي لا تزيد على أنه (قرأ على

(١) ممن تركوا أثراً عن سيرة ابن طفيل - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، ١٩٤٩، أيضاً، ابن أبي زرع، روض القرطاس ج ١، نشرة «Tournberg». أيضاً، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٦. أيضاً، لسان المدين بن الخطيب، مركز الإحاطة، مخطوط المكتبة الأهلية، باريس، رقم ٣٣٤٧.

(٢) L'leon Gautier, iben Thofail, Sa Œuvres, Paris, 1909.

أيضاً، بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ص ١، وملحق ج ١.

جماعة من المحققين لعلم الفلسفة، منهم أبو بكر بن الصايغ المعروف بابن باجة^(١). وسواء قد تتلمذ ابن طفيل حقاً على ابن باجة أو لم يصح ذلك فمما لا شك فيه أنه تأثر به وبفلسفته تأثراً بارزاً^(٢). هذا إلى جانب دراسة العلوم الدينية والفقه، والعلوم العقلية والطب، وقد برز بها جميعها وترك آثاراً بها. ولعل علومه هذه تلقاها في غرناطة وأشبيلية كونها مركزي العلوم في بيئة ومحيط ابن طفيل.

أما عن حياته العملية، قد تكون هذه المرحلة من حياة فيلسوفنا أوفر حظاً من سابقتها وأغزر مصادر.

يقدم الباحثون لنا ابن طفيل، قاضياً^(٣)، كما قدموه لنا طبيباً^(٤) بارعاً في غرناطة لحقبة طويلة لدى السلطان أبي يعقوب يوسف القيسي، إلى أن تخلى عن هذه المهمة لابن رشد. كما يقدمه لنا البعض، كاتباً لأمير غرناطة ولأحد أبناء عبد المؤمن^(٥). ووزيراً للسلطان أبي يعقوب يوسف نفسه.

وأوضح جوانب حياة فيلسوفنا تلك المرحلة التي قضاها في بلاط السلطان أبي يعقوب يوسف سلطان الموحدين، السلطان الشغوف بالعلم وبتحصيله، المقدر

-
- (١) المراكشي، المعجب... القاهرة، ١٩٥٥، ص ٢٤٠.
 - (٢) حتى هذه المعلومة مشكوك بها، لأن ابن طفيل نفسه يذكر انه لم يلتق به، حي بن يقظان، ط، دمشق، ١٩٣٩، ص ٦٢.
 - (٣) يذكر تلميذه البطروجي، أن استاذة، ابن طفيل كان قاضياً، انظر: Munk أمشاج من الفلسفة اليهودية والعربية.
 - (٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ٦، القاهرة، ١٩٤٨.
 - أيضاً ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج ٢ نشره ملر، القاهرة، ١٨٨٢، ص ٧٨.
 - أيضاً: لسان الدين بن الخطيب، المرجع السابق، ورقة ٤٤. يذكر انه ألف كتاباً في الطب في مجلدين ص، ١٠ يذكر أن لابن رشد كتاباً في الطب عنوانه: «مراجعات ومباحث» بين أبي بكر بن طفيل وبين ابن رشد في رسمه للدواء في كتاب المرسوم بالكيان.
 - (٥) أحمد أمين، ذخائر العرب، رقم ٨ - حي بن يقظان لابن سينا - وابن طفيل، السهروردي. ط ٣ مصر، دار المعارف.
 - أيضاً ابن أبي زرع، المرجع السابق، ص ١٢٦ - ١٢٧.

لأصحابه ومقربهم منه، لعلها اهم فترة من حياة ابن طفيل.

لقد نشأت علاقة بين هذين المشتركين في الشغف بالعلم واحترام العلماء، مما أفسح المجال للدارسين للتكهن بالمهام المختلفة والمتعددة التي كان يقوم بها ابن طفيل صاحب العلوم المتنوعة، والفيلسوف المبدع، لأبي يعقوب يوسف سلطان غرناطة الفاضل والمثقف، الذي كان يطمع بتحصيل علم الحكمة.

لا شك أن هذه العلاقة ستتجاوز بطبيعتها الوظيفة المحددة، إلى تعدد المهام والأدوار: من كاتب، وطبيب خاص، إلى وزير ومستشار ومرافق وجليس. إنها علاقة يلخصها ابن خلكان بقوله: كان (أبو يعقوب) أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها في الجاهلية والإسلام. صرف عنايته إلى ذلك ولقي فضلاء أشبيلية أيام ولايته. ويقال إنه يحفظ صحيح البخاري، وكان شديد الملوكية، بعيد الهمة سخياً جواداً استغنى الناس في أيامه... ثم طمع إلى علم الحكمة، وبدأ ذلك بعلم الطب... وكان من صحبه من العلماء بهذا الشأن (أبو بكر محمد بن الطفيل... ولم يزل يجمع إليه العلماء من كل فن من جميع الأقطار، ومن جملتهم أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد^(١)). ويذكر ابن رشد نفسه الظروف التي قُدِّم بها إلى السلطان أبي يعقوب، مقدراً لابن طفيل الصورة الفذة التي قدمه بها للسلطان، كما يعيد ويكرر مراراً ابن رشد أمام تلميذه الفقيه ابي بكر بندود بن يحيى القرطبي أنه كان كلما دخل على أبي يعقوب يجده مع ابن طفيل، ومعه وحده.

وهكذا تتصاعد هذه العلاقة وتنمو، بين أقطاب ذلك العصر في تلك البقعة من الأرض (الحاكم) السلطان أبي يعقوب، والعالم المعلم ابن طفيل، والتلميذ النجيب ابن رشد، وتستمر تأثيراً وتأثراً لتصل في مرحلة ما إلى توكيل ابن طفيل الأمانة المناطة به في بلاط السلطان، مختاراً لابن رشد كخليفة له في خدمة السلطان. الطبابة الخاصة لإشباع نهمه من العلم، ولتحقيق رغبته في المعرفة.

وهكذا يحدثنا المؤرخون أن ابن طفيل قد ظلَّ في بلاط السلطان أبي يعقوب

(١) ابن خلكان، المرجع السابق، ص، ١٣٤.

يوسف متعدد المهام والوظائف إلى أن تقدمت به السن، فتخلى عن وظيفة الطب إلى ابن رشد بعد أن كان قد أوكل إليه في مرحلة سابقة مهمة ترجمة كتب ارسطاطاليس، وتلخيصها وشرحها^(١)، تلبية لرغبة السلطان وتحقيقاً لشغفه بالعلم وبلوغاً للحقيقة.

ومما يشير إلى صدق ووفاء ابن طفيل نحو السلطان، استمراره على ملازمة ولده، أبي يوسف يعقوب، بعد وفاته عام ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م إلى أن توفاه الله عام ٥٨١ هـ/١١٨٥ م في مدينة مراكش ودفن فيها، وقد اشترك السلطان أبو يوسف نفسه في تشييع جنازته.

هذا ما قدمه لنا مؤرخو ابن طفيل، عن حياته، ونشأته، وتكوينه الفكري، أما كونه كفيلسوف فإن قصة «حي بن يقظان» التي خُلِّفها للملأ، فقد أودعها خلاصة أفكاره، إلى جانب الشائع والمتداول في عصره من علوم وأفكار وفلسفات.

(١) يحاول جوتييه. تحديد تاريخ هذه المهمة ما بين ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م وعام ٥٦٥ هـ/١١٦٩ م إذ كان ابن طفيل قد بلغ ٦٣ أو ٦٨ من عمره، وابن رشد ٤٢ من عمره.

الفصل الثاني ابن طفيل العالم والمؤلف والفيلسوف

إلى جانب بعض الآثار العلمية التي تركها ابن طفيل في الطب وعلم الفلك الذي خالف بهما العالم اليوناني بطليموس^(١). فإن مؤلفه الخالد «حي بن يقظان» الذي شغل العالم ولا يزال لما يقدمه من علوم، والذي يُعتبر ملخصاً لموسوعة العلوم الشائعة في عصره، وفلسفة كانت موضع اهتمام وعناية عند المسلمين وغير المسلمين.

ابن طفيل وقصة حي بن يقظان^(٢)

بصرف النظر عن الأصل القصصي لرسالة حي بن يقظان، الذي يُرجعه إلى أصل يوناني أسطوري^(٣)، فإن ابن طفيل قد أضفى على هذه القصة من شخصيته، شكلاً ومضموناً وأسلوباً وغرضاً، مما جعلها تلتصق بابن طفيل التصاق الفكر بصاحبه، والأسلوب بواضعه. مما دعا أحد مؤرخي ابن طفيل العلامة جوتيه لأن

(١) يذكر ابن رشد في شرحه الأوسط لأرسطاطاليس (في الآثار العلوية) ان ابن طفيل كان صاحب مذهب يخالف به نظام بطليموس في الفلك، ويعيد الشيء ذاته تلميذه البطروجي.

(٢) انظر، حي بن يقظان: لابن سينا وابن طفيل والسهورودي، تحقيق وتعليق أحمد أمين، ط ٣، مصر، دار المعارف، ١٩٦٦.

(٣) يعيد إمبيليو غرسيه أصل هذه القصة المشتركة بين ابن طفيل و Baltzar Cracian في كتابه (Griticon) أي الناقد، إلى أصل يوناني واحد، ١٩٥١، El Criticon, Saragopeza, l'ere, Partie هو بعض الأساطير اليونانية التي تدور حول الإسكندر.
انظر: Gracian Baltzar.

يقرر أن ابن طفيل هو مبتكر هذا الأسلوب القصصي البديع الذي انتفع به الكثيرون من بعده^(١).

وليس من الغريب أن يُدرج تحت هذا العنوان (حي بن يقظان) قصص تختلف أسلوباً، وغرضاً، من مؤلف لآخر، ومن عصر إلى عصر.

فهناك حي بن يقظان، ابن سينا، الذي رمز إلى العقل وجدليته مع شهوات النفس، ومتطلبات الجسد.

وهناك حي بن يقظان، السهروردي الذي أراد أن يبين المرحلة الأخيرة للرضي عند الإنسان وهي مرحلة الكشف والاتصال بعد التخلص من الشهوات والحياة المادية.

كما أن الغرب قدم ما يشابه حي بن يقظان. لقد قدّم كريسيان (Crician) عام ١٦٥٠ كتاباً بعنوان (El - criticor) (الناقد) نشر عام ١٩٥٣.

وأيضاً قصة روبنسون كروزو (Robinson Grusoe) تأليف دانيال دي فوا (Daniele de Fo'e) التي نُشرت عام ١٧١٩ فيها الكثير من عناصر الشبه مع حي بن يقظان لابن طفيل.

إذاً، لقد تعددت الأغراض، كما تنوعت المضامين والأغراض تحت عناوين مشابهة (لحي بن يقظان). وبقي حي بن يقظان بابن طفيل ألصق، وللدراسة والبحث أكثر استقطاباً وأبعد أثراً. ومنذ القرن التاسع عشر وقصة حي ابن طفيل تلقى في الشرق والغرب على السواء من العناية والدراسة ما لم يلقه أي أثر فكري آخر.

فتعددت اللغات التي ترجمت إليها. والطبعات التي أخرجتها دور النشر كما سعى الباحثون والمنقبون عن نسخ شتى، وقد يكون من المستحسن أن نذكر بعض النسخ وأشهر الترجمات وأقدم الطبعات التي حظيت فيها قصة حي بن يقظان من

(١) انظر: Leon Gautier, Ibn Thofail, sa vie, ses Œuvres, paris 1909 مقدمة الترجمة الفرنسية لرسالة حي بن يقظان.